

من البلاغة إلى الاتصال
بناء البرهان في نونية أبي البقاء الرندي

أ.خيرالدين دعيش
جامعة سطيف - الجزائر

Résumé

Cet exposé (Essai) traite une approche objective d' un des textes poétique arabes , celui de ABU - EL BAKA EL RANDI , approche du point de vue de sa communicabilité, Basé sur l'argumentation et l'emploi d'éléments d'analyse logique et conséquente

ملخص:

يروم هذا البحث مراجعة نصّ من النصوص الشعرية في التراث العربي، نصّ أبي البقاء الرندي، من حيث طاقته الإبداعية والتوصيلية، القائمة على البرهنة والحجاج، وتوظيف عناصر الصياغة المنطقية والاستدلالية، ثم مقارنة هذه الطاقة من الوظيفة البلاغية القائمة على عناصر الأداء الفني والتشكيل اللغوي، بهدف كشف الشقّ الإقناعي والبرهاني المتواري خلف تأثير الوظائف الفنية والجمالية للنصّ.

يقول الجاحظ : ((مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع)) . 1

إنّ هذه المقولة تعود بنا إلى فهم المنظومة البلاغية العربية القديمة في شقها الاتصالي ، ومراجعة المستويات التي تهتم بالأداء الكلامي وفق التعرف على المقامات وضبطها .

ولم تجد البلاغة العربية القديمة ، من خلال أقطابها ، إلا علم البيان تربة خصبة لتدارس الفعل الاتصالي ووظائف اللغة الإبداعية والإرسالية ، ضمن البحث في مقتضى الحال ومقام السامعين وعناصر الأداء الكلامي عندهم . ثم إنّّه لم يحظ وجه بلاغي بالبحث والمدارسة مثل ما حظي به القائل في مقاصده وتنويعات

كلامه، والسامع في أحواله ومقتضيات تلقيه للكلام والخطاب، في سياق الإبانة عن المعاني والإفصاح عن الأغراض الكلامية المحددة لأنماط تشكيل الكلام، يقول جميل عبد المجيد :

((لم يكن لمبدأ بلاغي من الإجلال عند البلاغيين العرب والسيطرة على تفكيرهم مثل مبدأ البيان، فهولديهم جوهر البلاغة والوظيفة الأساسية لكل اتصال لغوي)) 2. والحقيقة إن هذا البحث لا يروم التعريف بالبلاغة ولا بالبيان، بقدر ما يجتهد في مسعاه إلى تخطي القراءة البلاغية التقليدية لنصوص شعرية تراثية من شعرنا العربي، بل إن بعض النصوص طوّقتها المعيارية والنمطية في تطبيق بعض المقاييس البلاغية عليها، حتى غدا النصّ معها أرضاً مُسَيَّجة لا يمكن وطئها إلا من خلال تلك الفتحات، وأمّلت عليه بذلك مقولة الزمن المحايث، على حدّ تعبير هيدجر، (الآن وهنا) . والواقع أنّ الشعر العربي القديم ما يزال يمارس كينونته وحضوره الأنطولوجي في معترك الاتجاهات النقدية المعاصرة، وبعبدا عن أيّ وصاية فكرية أوتاريخية تلزمه (الآن وهنا) ، إنّه النصّ / الإنسان ، وليس نصّ الإنسان ، وهو النصّ / الزمان ، وليس نصّ الزمان ، وهو النصّ / المكان ، وليس نصّ المكان ، إنّه كلّ الماهيات وكلّ الأبعاد الوجودية الممكنة ، عبر تحقيقه وتفعيله الممكن .

أقول ، إنّ البحث يعود إلى استقراء إحدى الوظائف البلاغية التي لم تقف المنظومة البلاغية العربية تحديدا وممارسة وكشفا مثل ما وقفت عندها ، وهي الوظيفة الإبلاغية والتوصيلية للخطاب ، التي ترنو إلى الإقناع واستمالة السامع عن طريق البرهنة وبناء الحجّة ، غير أنّها وظيفة قاصرة في أبعادها ومراميها بسبب انحسارها بين حدود أغراض بلاغية معينة لم تتجاوزها وتوسّع من دوائرها ، ففقدت معها بذلك مزية البحث في مسيل معرفي آخر متفرّع من مظائنها وأصولها ، وهو الحجاج والبرهنة .

لقد جاء في اعتقاد البلاغة العربية القديمة العكوف على غرضين بلاغيين عكوبا ملحا ، تمليه حدود ما هو متعارف عليه تأليفا ونقدا ، وقواعد ما أرسى عليه الإرسال والاستقبال في تلك المنظومة ، فلم تكن الأغراض والمقامات تتعدى سياقات المدح والهجاء ، وما تشكّل بشكليهما من تحسين وتقبيح ، أو تعظيم وتحقير ، أو تهويل وتهوين ، خاصة ما تعلق منها بفنّ الخطابة ، يقول محمد العمري : ((وقد يسهل القول إنّ الخطابة العربية هي خطابة منافرة ومفاخرة ، ميالة إلى المدح والهجاء ، ولم تعتمد

الحوار الهادئ القائم على الحجة إلا في مناسبات محدودة، ولذلك ينتظر أن يكون عنصر الحجاج والبرهنة أضعف عناصر بنائها ((3 .

إننا نفهم من وراء كل ذلك فعل الوظيفة الإبلابية والتوصيلية غير القائمة على الحوار الهادئ، بأنها وظيفة استمالة وإقناع تتشد التأثير في نفس المتلقي وعواطفه، وتدفعه إلى الاستجابة الانفعالية المفترقة إلى عناصر المنطق وآليات التحليل فيه. فالتأثير إذن، لا يقوم على الإقناع المنطقي وإقامة الدليل بقدر ما يحاول دغدغة النفس البشرية في مشاعرها وأحوالها الفطرية، ولم يكن النظم ببعيد عن تلك الأحوال من الخطابة، وقد أشار ابن قتيبة إلى الناظم وهويقف باكيا شاكيا مستعطفًا القلوب مستميلاً للأسماع، يقول: ((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار.... فبكى وشكا، وخطب الربيع واستوقف الرفيق..... فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه...)) 4 . فالشعر بذلك نحا منحى الخطابة في أدائها ووظائفها التعبيرية، إلا النزر القليل من القصائد ذات الطابع الإقناعي القائم على البرهنة والحجاج، وهي قصائد متأثرة في مجملها بالاتجاهات الكلامية المختلفة التي ملأت الحياة السياسية في عصور بني أمية وبني العباس، حين اشتد الصراع واحتدم النقاش بين الفرق الإسلامية والمتكلمة والمناطق في أشعارهم ومناظراتهم، غير إن المقامات التي يفترض أنها حجاجية بقي يغلب عليها الطابع الانفعالي والاندفاع النفسي المتأجج الذي يحور مسار البرهنة إلى المغالطات واللعب على أحوال منطوق مؤمّوه، يقول جميل عبد المجيد: ((فقد نُظمت القصيدة العربية القديمة - أكثر ما نُظمت - للمفاخرة والمنافرة، والمدح والهجاء، والتوصل والاعتذار، والحث والإنهاض، والدعاية والترويح)) 5 .

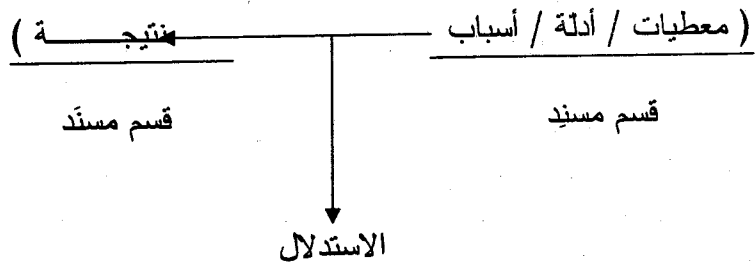
لقد أتى على لسانيات الخطاب حين من البحث في هذا المجال أن توجد للحجاج والبرهنة قواعدهما وصيغتهما اللازمة، ضمن ما أصطلح عليه بالبلاغة الجديدة أو الخطابة الجديدة، التي وفرت جهداً كبيراً للدراسات التطبيقية لنصوص حجاجية باللغة الأجنبية، مما ترك الساحة النقدية العربية تفتقر لمثل هذه الدراسات، يقول الحواس مسعودي: ((والآن تتوفر تطبيقات على نصوص مختلفة ولكن للأسف جُلّها باللغات الأجنبية، إذ تفتقر العربية لهذا النوع من الدراسات رغم تنوع وثرأ نصوصها)) 6 .

ولعلّ اهتمام النقد الغربي بهذا الحقل (البلاغي / اللساني) هو الذي غذى مقدرة البحث في النصّ الحجاجي وتطوير آليات تحليله ونقده ، وقد برز مع ذلك جملة من البحاثة والنقاد في هذا المجال على رأسهم **جان ميشال آدم** m Adam . z وبيرلمان Perelman من خلال كتابه : **الخطابة الجديدة new rhetoric** . كما أنّه لا يعني هذا بآية حال من الأحوال نقاعس البلاغة العربية القديمة عن مثل هذا الدرس البلاغي ، خاصة ما قدمه الشيخ ابن وهب في كتابه البرهان والسكاكي في مفاتيح العلوم والجرجاني في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز .

يعدّ النص البرهاني وكذا الحجاجي أهمّ المجالات اللغوية التي انشغل بها علم النصّ الحديث ، إلى جانب نصوص أخرى مثل النصّ الحوارى والنصّ الوصفى والنصّ السردي ، وإذا نحكم بأهميّة النصّ الحجاجى والبرهاني فذلك لأنّ النصوص في مجملها وعلى تنوعها لا تكاد تخلو من الوظيفة البرهانية للغة ، وهي الوظيفة السابعة التي أضافها إلى وظائف اللغة الست التي كان قد حدّدها " ياكبسون " . أوقل إنّ **Adam** ميشال الوظيفة البرهانية تكاد تكون الأكثر تحميلا في لغة التخاطب والتواصل قصد الإقناع والبرهنة : ((إنّنا عندما نتكلم نشير إلى عالم (حقيقي أوخيالي) ونصوّره (الوظيفة الوصفية) ، لكننا نتكلم أغلب الأحيان ونحن نسعى إلى إقناع المخاطب وحمله على أن يقاسمنا رأيا أو تصوّرا حول موضوع معيّن ، وبعبارة أخرى ، فإنّنا نتكلم أغلب الأحيان من أجل البرهنة)) 7 .

نموذج الإسناد البرهاني :

يتشكّل المقطع البرهاني بالصورة التالية :



فالنموذج القاعدي للبرهنة يتمثل في الربط بين معطيات ونتيجة، وهو يشبه إلى حد ما النموذج الصوري في المنطق الأرسطي (مقدمة كبرى + مقدمة صغرى = نتيجة) وكذا المربع السيميائي الذي وضعه " غريماس " ، كما أن هذا الربط بين المعطى والنتيجة يمكن وبالارتكاز Garant بواسطة ضامن Implicite أو ضمنيا Explicite أن يكون صريحا، فتكون المعطاة ظاهرة والسند مضمرا، أما باقي العناصر Support على دعامة أو سند المكوّنة للمقطع البرهاني فتتأرجح بين الظهور والإضمار، وهنا يمكن أن نكشف عن القاعدة الاستدلالية عن طريق مراجعة الضامن والسند .

احتمال التقييد في الاستدلال البرهاني :

إن تطبيق القاعدة الاستدلالية ليس نتيجة حتمية يجب التسليم بها قطعا ، بل قد تكون قاعدة احتمالية فقط ، إذ قد تُدحض العلاقة بين المعطى والنتيجة ، وهنا (كسر لأفق التوقع) الذي يحتمل البحث عن استدلالات أخرى تجيب على تشكّل العلاقة الجديدة بين المعطى السابق والنتيجة الجديدة نظرا لدخول التقييد . فالتقييد يشتغل في فضاء دلالي واسع يستوجب من المستدل جملة من الإحالات الاستدلالية الغائبة (المضمرة) ، وهنا بالضبط تظهر كفاءة المتلقي أو السامع في تحليل مستويات الخطاب وتوظيف القدرة على اكتشاف العلاقة الجديدة للقضية ، يقول " فان دايك " : ((ولذلك فإن من أهم وظائف علم اللغة النصي النقدي تحليل نوع تأثير المعارف والآراء والاتجاهات بوصفها نتيجة أبنية نصية محددة ، وجعل مستخدم اللغة واعيا بأوجه الربط تلك)) 8 . وقد تظهر للمستدل أدوات لغوية جديدة تقع بين المعطى والنتيجة ، وهي أدوات التقييد التي تفترض نتيجة لم تكن متوقعة منه ، بل عليه أن يبني تصورا جديدا لاستدلاله يستقيم وطبيعة المعطى الجديد ، ويمكن أن نمثل لهذه الأدوات بـ : (لولا ، إذا ما ، لكن ، لو أن ، غير أنه) .

كما إن العملية البرهانية لا تفترض استقطاب ردّة فعل واحدة من المتلقين والجمهور ، بقدر ما يحاول صاحب الخطاب البرهاني توقع نوعية الذين يرسل إليهم ومستوياتهم ، فيحرص على تقديم معطيات تراعي المقدرة على الفهم والتمثل وكذا الاستدلال والعمليات الذهنية المعقدة : ((وفي هذا الصدد يجب التأكيد على أهمية

213

ليست فيضا من ألم مجرد من المنفعة الخاصة بقدر ما هي صرخة أطلقها الرندي مستنصر المسلمين لحماية الأندلس.

والحقيقة أن جلّ هذه الدراسات قد اكتفت بالمعالجة البلاغية والفنية للنص، وكذا الاهتمام بالجانب اللغوي والصوتي مقارنة بالتلوينات الإيقاعية والصيغ النحوية، وهو الأمر الذي جعلني أنظر إلى النصّ من زاوية غفلت تجاوزتها الدراسات السابقة، كما أن هذا لا يعني بالتأكيد الاعتقاد الجازم بقصور تلك الدراسات، بقدر ما كان الاعتقاد بأن القصيدة تكشف بصورة صريحة عن آليات قراءتها واستراتيجيات التعامل معها، من خلال ما تعرضه من مادة شعرية ودلالية صريحة أو ضمنية؛ بل إن القارئ لهذا النصّ يقف أمام مستويات تعبيرية وتنويعات دلالية تتجاوز محورية الرثائية المحيطة للقصيدة، وكذا تخطي المعيارية التي وقعت النصّ في حدود ما هو فني وانفعالي يختص بالغرض الذي يصبغها رثاءً وبكاءً ولا يصبغها برهنة واستدلالاً من أجل الإقناع والتأثير العقلي المستوجب لردّة فعل واعية: ((تتحقق الاستمالة - في الأساس - باستدلال منطقي قابل للاختبار من قبل المتلقي، ليأتي اختياره اختياراً واعياً عاقلاً)) 18 .

تقوم القصيدة في عمومها على تقديم مادة دلالية مشحونة بطاقة تأثير واستمالة عقليين، مع فتور نسبي في درجة الاستمالة النفسية الانفعالية، وهوما يكشف عن اكتساح الجانب الإقناعي فيها بالارتكاز على البرهنة والعمليات الاستدلالية الممكنة، هذه العمليات التي تقع في مستوى أنماط مختلفة للبرهنة من خلال ما هو عقلي وديني وخبراتي متعلق بتجربة المستدل ومرجعياته الثقافية واللغوية والمعرفية وغيرها من المرجعيات التي يركز عليها أثناء الاستدلال . والحقيقة أن هذه الأنماط المختلفة للبرهنة تشغل في فلك ما هو جدلي أوفي ما هو خطابي، لذلك فإنّ الحجاج في النصّ لا يعدون أن يكون إلا حجاجاً جدلياً أو حجاجاً خطابياً؛ فالأول يستند إلى عرض المسلمات للوصول إلى النتائج التي تفترضها تلك المسلمات، بينما يرنو الثاني إلى إقناع المتلقي من خلال عرض مقدمات ومعطيات للوصول إلى نتائج، ولعلّ الفرق يكمن في أنّ الثاني يتصاعد فيه العملية الاستدلالية لدى المتلقي فلا يكون الربط بين المعطيات وبين النتائج ربطاً مباشراً، بقدر ما يخضع إلى جملة من القياسات والإحالات المرجعية التي تطمئن بصحة النتيجة وسلامتها مقابلة بالمعطى أو المقدمة . بينما يكون الربط بالنسبة للحجاج الجدلي ربطاً مباشراً يحتكم فيه المستدل إلى التسليم بالمعطى وكذا

الوصول إلى النتيجة دون الإحالة أو الرجوع إلى السند والضامن ؛ هذا النمط من الحجاج يتكشف من أول بيت في نونية أبي البقاء التي مطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ فلا يُعزُّ بطيب العيش إنسانُ

فالشاعر ابتداءً بتوصيف الأشياء في كليتها وعمومها على سبيل تضمين الاستثناء والتخصيص في الحكم الذي أصبح خصوصية لتلك الأشياء ، فلا يقوم الاستدلال بالنسبة للكلِّ إلا وقد حصل منطقياً الاستدلال بالنسبة للجزء الذي يظهره القارئ ويطفوه إلى السطح عبر العملية الاستدلالية التالية :

كل شيء في الحياة ناقص ← ما أفعله وأتمه ناقص

مسلمة

/
حاصل المسلمة

مقدمة

فالحاصل الذي يمكن اعتباره نتيجة - بلغة الحجاج والبرهنة- إنما هو مُتَضَمَّنٌ داخل المسلمة أو المقدمة التي افترض فيها الشاعر أن (كل ، جميع ، ما من شيء) يفعل الإنسان أويتمه إلا وأخذ حكم الناقص ، لذا فالقارئ لا يحيل القضية إلى الاستدلال والبحث في السند والضامن ، ما دام السلم البرهاني يقتضي أن حكم الكل يسقط على الجزء المتفرع منه منطقياً ، إنما لا يعدو الأمر إلا استنتاج حكم الجزء من حكم الكل .

والواقع أن الشاعر لم يرد بهذا التوصيف إلا الإعلان عن بداية مشروع نصّه، القائم على بلاغة الخطاب الإقناعي والبرهاني ، معتقداً بما أوعزته المنظومة الإبداعية وكذا النقدية من أهمية للمطلع ومستهل القصيدة ، وهو بذلك يحاول أن يوجّه نصّه الوجهة التي ترتضيها الغاية والمقصد عنده منذ البداية ، ومنذ أمن بأنّ للشعر وظائف تتعدى الانفعالية والإخبارية إلى ما يقتضيه المقام الذي أنشئ من أجله النصّ ، يقول شكري عياد في تحقيقه لكتاب أرسطو (فنّ الشعر) : ((الشعر صناعة ترمي إلى اكتساب تسليم الغير بما نقول ، وألحقوه بالجدل والخطابة)) 19 .

ويستطرد الشاعر في بناء صيغة البرهنة التي يركز عليها في النصّ، حين يعيد توظيف صيغة الخطاب القائل بـ (الكلّ) في البيت التاسع، قوله :

أتى على الكلّ أمر لا مردّ له حتى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا

فالعودة إلى توظيف الكلّ هي عودة بالقارئ إلى جدل البيت الأول القائم على التسليم، وإيصال النتيجة بمقدّماتها مباشرة دون الاستدلال والإحالة على المرجعيات، فما أتى على الكلّ لا يحتمل التخصيص والاستثناء، بقدر ما يتضمن إقناع المخاطب المقصود بأنّه جزء من هذا الكلّ المخصوص بسقوط الأندلس وضياع مجدها ويعود بذلك القياس إلى صورته التي ابتدأ بها :

أتى على الكلّ أمر (قضية كبرى).
المخاطب المقصود واحد من الكلّ (قضية صغرى).

أتى على المخاطب المقصود أمر (نتيجة)

فصورة القياس هنا تعكس صورته في القياس الأول الذي يفترض الانتقال من مقدّمة (مسلمة) إلى نتيجة، دون الارتكاز على سند أوضامن . وتتطعم صيغة البرهنة في هذا البيت بما يتواظف دلالياً مع دلالة (الكلّ) في مفهومه، من خلال النفي الجازم والمطلق في قوله (لا مردّ له) وهو التوظيف الذي لا يوحى بأيّة نسبية أو تقريب في الحكم كأن نقول (قد يردّ / فيه ردّ / يمكن أن يردّ ...)، بل لا تحمل دلالة هذا النفي إلا المطلق من الحكم والجزم به، وقد حاول الشاعر أن يؤكد في البيت الرابع عشر : (وما لما حلّ بالإسلام سلوان) .

ومع أنّ النصّ لا يحتمل في أدائه الإقناعي والإيصالي أسلوب الحجاج الجدلي بالصورة التي يموت معها النصّ فثباً وجمالياً، إلا أنّ الوظيفة الضاغطة فيه بلاغياً تحصره داخل إطار ما هو برهاني وحجاجي بالدرجة الأولى، ولا يكون التأويل واستقراء النصّ جمالياً إلا في حدود ما تمنحه تلك الوظيفة الضاغطة، يقول جميل عبد المجيد : ((وبهذا يمارس الجدل مع المتلقي نوعاً من القسر والقهر)) 20 .

وشبيهه بالبيتين السابقين ساق الشاعر البيت العشرين من القصيدة ،حتى لكأنه يبدو أن هذه الأبيات الثلاثة هي بمثابة المفاصل النصية التي تضمن التعلق بين وحداته ،وتحفظ بذلك مسار الحجاجية فيه ،يقول في البيت العشرين :

قواعد كنّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

إنّ المشابهة مع البيتين السابقين لا تكمن في الصيغة الدلالية للتركيب بقدر ما تكمن في صيغة عرض هذا التركيب ،وهي صورة الحجاج الجدلي الذي يترجم البيت إلى :

كلّ بلد يبقى ببقاء أركانه (قضية كبرى) .
الأندلس بلد (قضية صغرى) .

الأندلس يبقى ببقاء أركانه (نتيجة) .

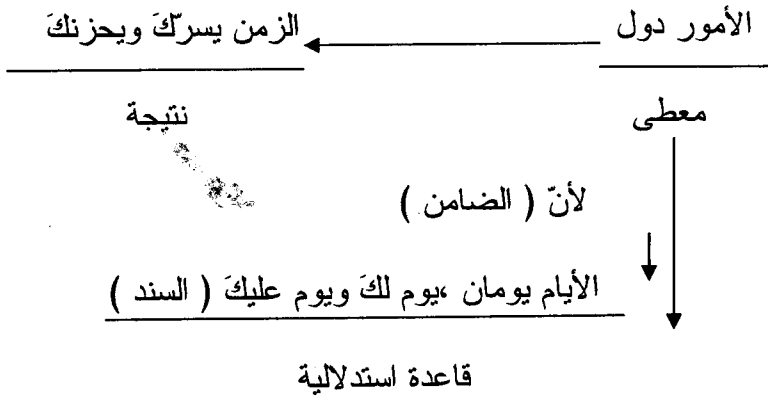
فالشاعر إنّما أراد استصراخ المسلمين لإنقاذ هذا البلد عبر تصعيد الوظيفة الإقناعية وتفعيل التجاوب العقلي القائم على الفهم والإدراك ،فضلا عن الاستشارات النفسية والانفعالية التي تشكّل الشقّ الثاني لهذا النصّ ،فزوال الأندلس ليس زوالا نفسيا نحسّه ونشعره ،بقدر ما هوزوال من الذاكرة ومن الموروث ومن التاريخ ومن الوجود ،وهوما قصده الشاعر نحو متلقيه بمحاولة استقطاب استجابته العقلية .

وينفتح النصّ على جملة من الاستدلالات الحجاجية في سياق فهمه وإدراكه ،فهو في عمومته ،كما سبقت الإشارة ،ذومقام حجاجي برهاني لا يتجاوز الوظيفة الإقناعية والجمالية ،لأنّه ببساطة نصّ شعري له مقوماته الفنية والأدبية ،وهو بذلك يستقيم ومقولة " هوراس " في تعريفه للشعر : ((هولك الكلام المفيد الممتع)) . والقصيدة في حقيقتها شيء من هذا الكلام المفيد بما تقدّمه من إوالية برهانية تمسك النصّ من أوله إلى آخره ،وتجعله يشغل ضمن نسق مرجعي واحد هو في الغالب النسق المرجعي العقلي القائم على عناصر الفهم والتحليل والإدراك والاستدلال ،ومن ذلك أنّنا نقرأ جلّ أبيات هذه القصيدة ضمن هذا النسق ونحيلها على هذا الجهاز المستدل لكشف علاقات البرهنة والحجاج فيه . وخذ إليك

بهذه الأبيات التي أوردها الشاعر على أنها من باب الحجاج الخطابي الذي يستند دائماً على البحث في المرجعيات والعودة إلى اختبار العلاقة التي تربط المعطى بنتيجته بمراجعة السند والضامن، من ذلك قوله :

هي الأمور كما شاهدتها دُول مَن سرّه زمن ساعته أزمانُ

فالبيت يكشف عن صورة استدلالية تمتحن المخاطب في مدى تلقيه للخطاب حجاجاً، وكذا مقدرته على الاقتناع بحسب مقدرته على التحليل وربط العلاقات الممكنة، فيصبح الاستدلال معروضاً أمامه بالشكل التالي :



فالاستدلال هنا يشغل في فضاء دلالي واسع، بحيث يُخرج القضية من السياق اللغوي إلى السياق المرجعي الذي تحيل عليه القضية دلالياً، وهنا بالضبط يبدأ المتلقي البحث عن القاعدة التي يحتكم إليها في صحة القضية أو بطلانها، يقول عبد القادر بوزيدة : ((إنّ القارئ، خلال عملية القراءة، يحاول أن يتصوّر قدر الإمكان كيفية تنظيم النصّ بالارتكاز على استراتيجيات يتذكّر أنّها كانت فعالة ومفيدة خلال تجربته السابقة)) 21 . كما أنّ الشاعر يبدي نيةً ضمنية في إيصال متلقيه إلى القاعدة الاستدلالية ويساعده بذلك على مراجعتها في قوله (كما شاهدتها) أي كما شاهدها القارئ والمتلقي في حياته اليومية التي تسرّ زماناً وتسيء أزماناً، وهوما يكشف عن المقصدية المتوارية خلف التشكيل اللغوي

والأداء الأدبي .

ثم ينزع النصّ إلى كشف مثل هذه القضية في البيت الثالث الذي يُحمّله الشاعر وظيفة المعطى أو السبب قوله :

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شأن
فالبيت هنا يبدؤفي علاقته مع الأبيات التي تليه مباشرة كأث السبب الذي ساق
الأبيات الأخرى في شكل نتائج، فنقول مادامت الدار الدنيا لا تبقي على أحد فإن من
نتائجها الأبيات التالية :

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شدّاد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشدّاد وقحطان

وبصبح من الممكن إدراج العلاقة، تبعاً لما مضى، ضمن السلم الحجاجي القائل
بربط السبب بنتيجته وتحويل الصورة إلى شكلها التالي :

وهذه الدار لا تبقي على أحد ← أين الملوك / أين ما شاده / أين ما حازه ؟

نتيجة

معطى / سبب

لأن كلّ من عليها فان (الضامن والسند)

فالأبيات : السادس والسابع والثامن هي تحصيل ما تفعله دار الفناء، فلا تبقي
على أحد كما ورد في البيت الثالث من القصيدة، ويقف القارئ أمام هذه القضية
موقف المستدل الذي يبحث عن منطق العلاقة بين ما جاء في البيت الثالث وما ورد
في الأبيات التي تليه، حتى يغدو به الاستدلال إلى قاعدة (كلّ من عليها فان، فإنك
ميت وهم ميتون، كلّ نفس ذائقة الموت) .

كما أنّ نصّ القصيدة، إلى جانب النمطين الحجاجين السابقين، يقف على
استخدام آلية أخرى من آليات الإقناع والمحاكاة يمكن أن نستقرئ توظيفها بين
البيت والآخر، وهي آلية القياس أو التمثيل أو المشابهة كما يحول للبعض أن يصطلح
عليها، يقول جميل عبد المجيد : ((وتقوم كثير من المحاجات على تقنية التمثيل، إذ

يكون موضوع بحثها كيف أنّ فكرة ما تشبه فكرة أخرى ((22 . ويقوم التمثيل على رصد الخصائص المشتركة بين الممثل والممثل له ، أوبين الموقف وشبيهه الموقف ، أوبين الصورة ومثيل الصورة ، إلى ما ذلك من الحالات التي تستقيم وهذا القياس ، بحيث يصبح القياس ربطاً بين شيئين كما جاء في تعريف طه عبد الرحمان من خلال كتابه (في أصول الحوار) قوله : ((أيّا كانت الصيغة التعبيرية التي يرد بها (القياس) ، إن مقارنة أوتشبيها أو استعارة أو غيرها فإنّه يقوم في الربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما)) 23 .

ونصّ أبي اليقّاء الرندي يحفل بجملة من التشكيلات اللغوية والأنماط البلاغية المحيلة على هذا النوع من الاستدلال ، وهو ما نقرأه ، على سبيل التمثيل لا الحصر ، في بيت من نونيته :

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

فالشاعر هنا حاول تقريب صورة الدين الحنيف ، وهو يترك ويدنّس ويفتقد أهله الذين يستتصر بهم ، من صورة الفجيرة التي تصيب الهائم في إلفه وشدة ارتباطه بمن يهيم به ،

ويمكن أن يصبح التمثيل هنا لغة برهانية يستجدي بها الشاعر استجابة المتلقي حين يُفعّل فيه حركة الاستدلال والمقايسة ، على أن تترجم هذه الحركة لغة البيت إلى :

صلة الدين بأهله	تشبه	صلة الهائم بمن يهيم به	إنّ ما أصاب الدين
ممثل	قياس	ممثل به	نتيجة

فالحركة الاستدلالية تتيح إمكانية الربط بين الصورتين وإدراجهما ضمن معادلة منطقية واحدة تؤدي بدورها إلى استقراء نتيجة واحدة أيضاً . وشبيه بهذه الحركة ما يقع في بيت آخر من استدلال ، حين تتشكل علاقة قياسية جديدة تطفو إلى سطح النصّ لتشتغل داخل الفضاء الحجاجي القائم على القياس ، وهو قول الشاعر :

يا رَبِّ أَمْ وطفل حيل بينهما كما تُفَرِّقُ أرواح وأبدانُ

إنّ البيت يكشف عن صورة ما من التقريب والمماثلة لا يمكن أن نقف معها عند حدود القراءة البلاغية فحسب ،التي نقول بالتشبيه وأركانه ،بقدر ما يمكن أن نحوّر الصورة إلى منطقها الذي جاءت من أجله خادمة له في سياق ما تعارف عليه النصّ منذ بدايته ،وكذا سياق ما تشكّل عليه الخطاب في مقصده ومقصد صاحبه ،وبالتالي فإنّ قراءة البيت هي شيء من قراءة النصّ وبعّد من أبعاده الوظيفية والدلالية والتركيبية ،حينما نقرأه بالتأكيد في صيغته الآتية :

فراق الأمّ عن الابن يشبه فراق الروح عن البدن إنّ فراق الأمّ عن الابن موت
ممثل قياس ممثل به نتيجة

إنّ الربط هنا ،وكذا في البيت السابق ،لا يمكن أن يقرأ خارج حدود الصورة البلاغية التي نقصد بها عادة إثارة الجانب الفنّي والجمالي لدى المتلقي ،ولكن مع شيء من التجاوز وموضعة البيت الموضع الذي يجب أن يفهم من منظوره ،يمكن تلقّيه حجاجاً أو برهاناً بما يستجيب لمنظومة النصّ الاستدلالية والبرهانية التي تُخرجه من حدود الفهم البلاغي القائم على التأثير الانفعالي إلى حدود الفهم الاتصالي القائم على الحجاج والبرهنة والقياس . ذلك أنّ القصيدة في كلّها اللغوي والدلالي ذات طاقة إيصالية وإبلاغية متمكنة ومقصودة ،عمد الشاعر إلى توظيفها وتحميلها في نصّ ليس يُرجى وراءه إلاّ الاستغناء والاستتصار بتفعيل الاستجابة العقلية الواعية القائمة على البرهنة والحجاج .

مراجع :

- 1- الجاحظ : البيان والتبيين ، ج 1 ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، الطبعة السابعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1998 ، ص 76 .
- 2 - جميل عبد المجيد : البلاغة والاتصال ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، 2000 ، ص 143 .
- 3 - محمد العمري : في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ، الخطابة في القرن الأول نموذجاً ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، 1986 ، ص 23 .
- 4 - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ط 1 ، تحقيق عمر الطباع ، دار الأرقم للطباعة والنشر ، بيروت ، 1997 ، ص ص 30 - 31 .
- 5 - جميل عبد المجيد ، البلاغة والاتصال ، ص 127 .
- 6 - الحواس مسعودي : البنية الحجاجية في القرآن الكريم (سورة النمل نموذجاً) ، مجلة اللغة والأدب ، عدد 12 ، ديسمبر 1997 ، الجزائر ، ص 329 .
- 7 - عبد القادر بوزيدة : نموذج المقطع البرهاني (أو الحجاجي) ، مجلة اللغة والأدب ، عدد 12 ، ديسمبر 1997 ، جامعة الجزائر ، ص 305 .
- 8 - فان دايك : علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ترجمة سعيد حسن البحيري ، ط 1 ، دار القاهرة للكتاب ، مصر ، 2001 ، ص 241 .
- 9 - عبد القادر بوزيدة : نموذج المقطع البرهاني (أو الحجاجي) ، ص 318 .
- 10 - المقرئ : أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج 1 ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة فضالة ، المغرب ، 1978 ، ص 47 ، 50 .
- 11 - الخفاجي شهاب الدين ، ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا ، ط 1 ، ج 1 ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1967 ، ص ص 370 ، 374 .
- 12 - المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ج 4 ، دار صادر ، بيروت ، 1968 ، ص ص 487 ، 488 .

- 13 - مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1979 ، ص ص 548 ، 554 .
- 14 - عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، ط3 ، جامعة حلب ، سورية ، 1978 ، ص ص 308 ، 315 .
- 15 - رضوان الداية : الأدب الأندلسي والمغربي ، جامعة دمشق ، سورية ، 1981 ، ص ص 246 ، 252 .
- 16 - كراتشوفسكي : الشعر العربي في الأندلس ، ترجمة منير مرسى ، عالم الكتب ، 1971 ، ص 55
- 17 - غارسية غوميز : الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1956 ، ص 104 .
- 18 - جميل عبد المجيد : البلاغة والاتصال ، ص 109 .
- 19 - أرسطوطاليس في الشعر : تحقيق ، محمد شكري عياد ، دار الكتاب العربي القاهرة ، 1967 ، ص 209 .
- 20 - جميل عبد المجيد : البلاغة والاتصال ، ص 110
- 21 - عبد القادر بوزيدة : المرجع المذكور ، ص 306 .
- 22 - جميل عبد المجيد ، المرجع المذكور ، ص 119 .
- 23 - طه عبد الرحمان : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ط 2 ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، 2000 ، ص 98 .